

الإصلاح الاجتماعي

والحالة الاقتصادية

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ سابا حبشي بك المحامي

وزير التجارة والصناعة سابقا

عندما أُلِفَ حضرة صاحب المقام الرفيع على ما در باشا وزارته في شهر أغسطس سنة ١٩٣٩
انثت وزارة الشؤون الاجتماعية بنفس المرسوم الملكي الذي صدر باعتماد تشكيلها .

وقد سجل ذلك المرسوم لأول مرة في تاريخ مصر الحديث أن الإصلاح الاجتماعي من
أعمال الدولة ، وأن أحوال الفلاح والعامل مما يجب أن تعنى به .

على أن هذا الإصلاح لا يقع على عاتق الدولة وحدها ، وإنما هو فرض على المجتمع المصري
كأنه . فهو واجب على المواطنين الأقوياء نحو أخوتهم الضعفاء ، وعلى الأغنياء نحو الفقراء ،
وعلى المتعلمين نحو الجهلاء .

وإذا أردنا أن نلخص برنامج الإصلاح الاجتماعي في كلمة جامعة قلنا إن محضه الكفاح
ضد مثلث الولايات المكون من الفقر والمرض والجهل .

وإذا شئنا أن نضع تلخيصا للتأخيص أمكن أن تندمج أضلاع المثلث جميعا في كلمة
واحدة وهي محاربة الفقر .

ذلك لأن الجهل والمرض في أغلب الأحوال من نتائج الفقر ، ولأن ضيق ذات اليد من
مستلزمات الفقر الخلق والعقل والجسم .

وقد روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال " لو كان الفقر رجلا لقتلته " .

وقال الرئيس هوفر الذي قام بتدبير إسعاف أوروبا في الشجاعة التي كانت تهدهما عقب
الحرب العظمى الماضية " إن القضاء على الفقر كان ولا يزال من قديم الزمان أسمى وأعز
الإماني الإنسانية " .

وينبني على هذا أنه مهما تعددت أوجه المسائل الاجتماعية عندنا فإنه يمكن ردها إلى
المشكلة الاقتصادية التي تعانيها بلادنا العزيزة .

فالفقر موجود بين ظهرائنا في صور شتى بعضها بالغ أقصى حدود البؤس وأقساها ، فلا سبيل الى إنكاره أو محاولة تجاهله . وقد سجلت إحدى خطب العرش منذ سنين أن مستوى المعيشة الحالي في مصر دون المستوى الذي اصطاحت الإنسانية على تحقيقه للفرد والجماعة .

وإذا نظرنا الى حالة الريف المصري نجد أن نصيب الفرد من السكان في الأراضى المزروعة قد هبط من واحد وعشرين قيراطا من فدان في سنة ١٨٩٧ الى عشرة قيراط في سنة ١٩٣٧

على أن أكثر من نصف هذه الثروة في يد عدد من الملاك لا يتجاوز ١٥٧٠٠٠ أما باقى الزراع فلا يملكون شيئا من الأرض التى يفلحونها أو لا يملكون إلا مساحات صغيرة .

كما أننا نجد أن نصيب كل فرد من سكان البلاد في الدخل القومى لا يزيد عن عشرة جنيهات في العام مع السخاء في التقدير، بينما تدل الإحصاءات الأخيرة على أن نصيب الفرد في استهلاك المواد الغذائية الأساسية كالقمح والذرة آخذ في النقصان بنسب كبيرة . ولعل هذا يفسر لنا انتشار مرض البلاجرا وغيره من الأمراض الناشئة عن قلة التغذية والتي تضعف حيوية الشعب المصرى وقدرته على العمل والإنتاج .

ولا يحدى نفعا أن نخادع أنفسنا عن سوء الحال الظاهر بالتحدث عن خصب تربة أرض مصر، إذ أن تخافة السكان تجعل ما يخص الفرد في ثروة البلاد ضئيلا . وقد بلغ متوسط عدد السكان للكيلومتر المربع في مديرية المنوفية ٦٨٦ نسمة .

فلم يعد إذن حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدق باشا الصواب عند ما وصف هذه الحالة الاقتصادية بأنها فقر مستور بلقائف من حرير .

ثم اذا انتقلنا من الريف الى المدن وجدنا أن حال الصانع لا تفضل حال الفلاح كثيرا .

ولعل أبلغ وصف يصور تصويرا واقعيا حالة الأحياء الفقيرة التى تكتظ بها الطبقة العاملة في المدن ما ذكره حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا في كتابه "على هامش السياسة" عن بعض مواضع في مدينة القاهرة حيث يقول :

"لا أظن أن هناك مكانا من أركان العاصمة المجهولة لم تطأه قدماى ، ولذلك رأيت ما لم يره غيرى . رأيت عجبا : الأزقة التى لا تقسع لأكثر من شخص واحد يسير فيها . دخلت بيوتا تدمت منها الروائح الكريهة المهلكة وتعلو جدرانها الرطوبة صيفا وشتاء . لا شمس ولا هواء ولا نور ينفذ اليها ، تسكن المجرة الواحدة أسرة مكونة من الأب والأبن والأولاد . ويعيش

معهم أحيانا بعض الحيوانات والطيور المتزلية. ولست أبالغ في هذا الوصف فليس من الصعب على كل من يريد التأكد أن يذهب الى عرب اليسار أو عشش الترحمان .

لنا أن نقول: هل عولجت مشكلة الفقر في مصر؟ وكيف عولجت؟ وهل كان للحالة الاقتصادية نصيب من تفكير الحكومة الشامل ؟ .

إنني أشاطر الرأي القائل بأن محاربنا للفقر لم يتجه بعد الى هدف معين ، كما أننا لم نضع بعد الخطط الاقتصادية التي توصلنا الى ما نريده لبلادنا العزيزة . فقد عتينا ببعض الأعراض الظاهرة لفقر فأنشأنا المستشفيات للرضى ، وأتقنا مالا كثيرا على التعليم الإلزامي ، ولكننا لم نواجه بعد مشكلة الفقر في جوهرها ، مع أن الفقر — كما قال حضرة صاحب السعادة عبد الرحمن بك عزام وزير الشؤون الاجتماعية السابق — مصدر كل المصائب والشوهر . ولم نفكر بعد في برنامج شامل للإصلاح الاقتصادي يزيد موارد الفرد ويؤدي الى رفاهية المجموع .

هل يريد القراء مثلا من أثر هذه السياسة القصيرة النظر التي تأخذ المسائل مجزأة وتجاهل حقيقة وضعها وصلاتها بباقي أطراف موضوعها .

إنني أقتبس هذا المثال مما كتبه الأستاذ محمد عوض عهد بالجامعة المصرية في كتاب "سكان هذا الكوكب" حيث يقول في الفصل الذي خصصه لمشكلة السكان في مصر :

"هناك الفريق الثاني من المصريين المثقفين المضطرين بحكم وظيفتهم الى الاتصال بأهل الريف من أطباء يعملون في المستشفيات . فكثير منهم قد شاهد بعينه منظر الفاقة البشعة يطالعه في كل نهار وفي كل ساعة من النهار ، ورأى بنفسه المهزلة الأليمة التي يراد بها علاج قوم مرضهم الحقيقي هو الفقر المدقع ، ورأى كيف يطلب منه أن يشترك في تلك المهزلة بأن يصرف الأدوية والعقاقير لمن يجب أن يكون علاجهم الأول هو الطعام والشراب والسكن الطاهر" .

إن علاج المسائل على هذا الوجه يذكركم بالنكاهة المشهورة عن أهل بلد ضافت بهم سبل العيش وعظهم بالمواعظ فذهبوا الى حاكم إقليمهم يشكون اليه أنهم لا يجدون الخبز فكان جوابه لهم : اذن كلوا بقلادة .

ذكرت أننا لم نوفق بعد الى إعداد خطة شاملة تواجه بها مشكلتنا الاقتصادية ونخفف من ويلات الفقر الذي تخيم سحبه الكثيفة على الطبقة العاملة في بلادنا .

ولعله كان لنا في الماضي بعض العذر في هذا التقصير حيث لم تكن الأداة الحكومية التي تتولى علاج شؤوننا الاجتماعية قد وجدت بعد .

أما وقد أنشئت الوزارة التي نيط بها الإشراف على الإصلاح الاجتماعي فإن لنا أن نتطلع في المستقبل القريب الى إنارة وجلاء المقاصد والوسائل ووضع الأمور في موضعها لنمضي في سبيل الرقي والفلاح قدما .

ويسرنى أن أقول إن جماعة الخدمة الاجتماعية الذين يعملون عملا مجيدا صامتا لبلادهم بمعالجة أكبر المشكلات التي تهدد كياننا ، عملا أسامه حب الخير والتضحية وانكار الذات قد خطوا خطوة تمهيدية موفقة في هذا السبيل .

فلأول مرة في مصر عمل تحت إشرافهم تحقيق علمي دقيق عن الفقر ومداه وأسبابه ونتائجه بدراسة أحوال ألف عائلة من العائلات الفقيرة .

كما يسرنى أن أذكر أن تجارب عظيمة النفع والأثر تجري الآن في طرق إصلاح القرية حيث أنشأت هذه الجماعة نفسها مركزين للخدمة الاجتماعية ببلدتي شطانوف والمنائيل .

وقد ساعد على تحقيق هذه الفكرة الجليلة التي جرت في الهند في ترافانكور وأنت بأحسن الثمرات أنه قد أصبح لدينا عدد من تخرجوا في دراسة وسائل الخدمة الاجتماعية في المدرسة التي أنشئت لهذا الغرض منذ بضع سنوات .

وإذا كان لنا أن نستبق النتيجة النهائية لهذه البحوث والتجارب وأن نحدد الأغراض والغايات التي ينبغي أن نسعى لها والتي يجب أن توجهنا الى تحقيق ما نريده للفلاح والعامل ، فإن خير علاج لسوء الحالة الاقتصادية في بلادنا هو زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي وإحسان استثمار موارد بلادنا لكي نزيد نصيب الفرد من الدخل القومي .

ولست أجد في التعبير عن أهمية المساعي التي تبذل في هذا السبيل أبغ من القول المأثور " إن من استطاع أن ينتج نباتين من العشب أو سبيلتين من الحنطة حيث لم يكن ينبت إلا نبات واحد أو سبيلة واحدة من قبل قد استحق تقدير الإنسانية أكثر من رهط رجال السياسة أجمعين " .

والمجال فسبح أمام الرجال الأشداء أصحاب العزائم القوية للابتكار والتجديد في ميدان النشاط الاقتصادي .

ولهم في هذا أداة فمالة هي البحث العلمي الذي يؤدي الى كشف موارد جديدة هي الآن في حكم العمل أو أساليب جديدة أو فرائد إنتاجا من الأساليب الحالية لاستغلال موارد الثروة المعروفة .

فبالرغم من أن القطر المصري عتيق في الزراعة التي يتقنها الفلاح إنقانا عظيما عن آباءه وأجداده منذ آلاف السنين ، لا يزال مجال التقدم فيها متسعا حيث أوجد البحث الحديث نوعا جديدا من الزراعة لا يعرفه في مصر إلا الخاصة تطابق عليه تسمية "الزراعة العلمية".

أما في الصناعة فإننا لا نزال في أول الطريق ولم نؤت من العلم بمخامات بلادنا ومواردها الصناعية حتى الآن إلا قليلا .

وفي مصر أيد وقوى عامة كثيرة تشكو البطالة ، ولدى الطبقات العاملة في الحقل والمصنع أوقات فراغ طويلة تضيق سدى ، لأن البلاد تحتاج الى المديرين والقادة الذين تنظم بشئكمهم وتديبرهم هذه الجهود وتوجه توجيهها متجا يعود على أصحابها وعلى البلاد كافة بالخير والرواج .

منذ بضع سنوات زار المستر بتلر وكيل مكتب العمل الدولي هذه البلاد بدعوة من الحكومة المصرية لدراسة أحوال العمل والعمال فيها فلاحظ أن هناك نوعا من أنواع البطالة المستترة هو قلة العمل الذي لا يكلف صاحبه إلا مجهود بضع ساعات من النهار أو بضعة أشهر من فصول السنة تتخللها أوقات فراغ و بطالة . فعلمنا أن نرشد هؤلاء وأن نعزدهم الاعتماد على الذات في زيادة مواردهم بممارسة صناعات صغيرة مساعدة يضيفونها الى عملهم الأصلي .

إن على الأغنياء والمفكرين والقادة لبلادهم حقا هو أن يجعلوا ما آتاهم الله من ثروة وتفكير موظفا في خدمة مواطنهم لا يضيعونه بالأنانية أو الإهمال ، بل يركونه باستغلاله استقلالاً صالحا فينفعون وينتفعون .

سأبا حبشى

كتب الخطيئة الى صديق وعده كثيرا وأخلف كثيرا أبيتانا منها :

ووعدتني فظننت أنك صادق وجعلت من طمع أبىء وأذهب

فإذا وجدت أنا وأنت يجلس قالوا : مسيلة وهذا أشعب